

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ الأصفي رحمه الله شخصية عابرة للحدود. والحدود هنا مفهوم عام يستبطن المعنى الجغرافي والمذهبي والقومي والديني والثقافي. فهو قد عبر بجسده وروحه الجغرافية العراقية ناشرا أجنحة السلام والتسامح في أجواء العراق وإيران وتركيا والخليج ومصر وغيرها من الدول التي أقام بها أو زارها. كما عبر بروحه دائرة الطائفية الضيقة فاتحا أفقا إنسانيا لقبول الآخر والاندماج به، ومزق شرنقة الذات منفتحا على الثقافة العالمية محاورا ومصغيا عبر فلسفة حوار منتزعة من النص القرآني، محذرا من الانغلاق عادا إياه إمارة للضعف والهروب من الواقع.

كما أنه قضى حياته واضعا كفا على رؤوس اليتامى وكفا أخرى تجزل العطاء للمعوزين والمحرومين، ويحتضن صدره الشريف المهجرين والنازحين من العراقيين وغير العراقيين.

عَبَّرَ حدود الطائفة بروح المذهب، مستوعبا المذاهب الإسلامية الأخرى ومستلهما أصلاتها الإسلامية طاويا كشحا عن أساليب الاتهام التي حفل بها السجال الطائفي على مدى قرون، السجال الاتهامي والتكفيري الذي لا يزال يتقل كاهل الذهنية العربية والإسلامية ويمنعها من الخروج من شرنقة التقليد ومورثات الآباء وعاداتهم إلى رحاب حب الإنسانية في حب الله وعبر حب الله سبحانه وتعالى، وخير شاهد على هذا التحرر من شرنقة التقليد الطائفي كتاباته التي عبّرت في خطابها الاجتماعي عن نفس كبيرة ومسؤولة أمام الله، وإدراكه لمسؤولية الخطاب الاجتماعي الديني عن سلامة الحياة الاجتماعية وانسجامها، فبنفس كبيرة عبّر الشيخ الأصفي عن الفرقة الناجية في الإسلام، ردا على الذين يحتكرون الحقيقة والنجاة يوم القيامة وفقا لرغباتهم النفسية متناسين أن يكون لله إرادة أخرى ومعنى آخر، وغافلين عن أن إرادة الله لا تسير وفقا لرغبات الإنسان ومصالحه الشخصية أو الفئوية و الطائفية، وإنما تجري وفقا لتدبيره وعلمه المطلق.

يقول الشيخ الأصفي رحمه الله: لماذا لا تكون الفرقة الناجية هي الفرقة المتمسكة بالكتاب والسنة، وبالتالي يكون كل من الشيعة والسنة هم الفرقة الناجية باعتبار

تمسكهم بالكتاب والسنة، وإن اختلفت مصادر السنة أحيانا بين الفريقين؟! ويتساءل رحمه الله: "فهل يصح إذا اختلفنا في فهم الكتاب والسنة أن يرمي بعضنا بعضا بالابتداع والضلال والهلاك.

ولماذا لا يكون المقصود بالفرقة الناجية كل من تمسك بالكتاب والسنة على أي اجتهاد، والمقصود بالابتداع والضلال والهلاك الخروج عن إتباع الكتاب والسنة والإعراض عنهما".^١

وفي مقابل التصريح الإشكالي للشيخ القرضاوي، الذي يحتكر الفرقة الناجية في فئة معينة، تبرز النفس الكبيرة للشيخ الأصفي التي أبت أن تسقط في شرك الخدعة أو تضلها الغفلة حين يقرر رداً على ذلك قائلاً "إن كل من يعتمد الكتاب والسنة نصاً واجتهاداً فهو من الفرقة الناجية، ومن يخرج عن دائرة الكتاب والسنة، ويعرض عنهما جزئياً أو كلياً فهو الفرقة الضالة والهالكة...".^٢ لم تزد النفس الكبيرة بأن طائفته هي الفرقة الوحيدة الناجية وأن أهل التوحيد من مذاهب المسلمين الأخرى هي الضالة، لم تسمح له أخلاقه القرآنية، ولم يسمح له حسه بالمسؤولية تجاه الأمة أن يخدش عاطفتها الدينية والمذهبية باجتهاد أو قناعة شخصية أو فئوية، مهما بلغت درجة اليقين لديه. وإنما فتح أملاً أمام الأمة بأنها هي الفرقة الناجية وإن اختلفت في اجتهادها.

ويضع الشيخ شرطاً للاجتهاد هنا وهو أن لا يكون الاجتهاد المقصود "تبعاً للأهواء، والظروف السياسية، كما يجتهد الخوارج والتكفيريون في إهدار دماء المسلمين، في مقابلة واضحة وصريحة لحديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بحرمة دماء المسلمين، إلا بحقها، وحقها معروف في الشريعة".^٣

لا شك أن خلفيات مختلفة ومتضاربة تلك التي دفعت الشيخين إلى اجتهادين متناقضين أحدهما متطرف، والآخر أقل ما نقول بحقه أنه معتدل. الأصفي في خطابه الاجتماعي يشعر بالمسؤولية أمام هذه الأمة وأمام الله، وهو حذر كل الحذر من أي كلمة أو تعبير يتسبب في خلق أزمة اجتماعية لمجرد اجتهاد خاطئ مقصود أو تصريح انفعالي، إن

^١ الأصفي، محمد مهدي، ثقافة الحوار، خطاب العقل والدين، الثقافة الإسلامية، منشورات مجمع أهل البيت (ع)، العراق، النجف الأشرف، ٢٠١٤، ص ١٧.

^٢ المصدر نفسه، ص ١٩.

^٣ المصدر نفسه، ص ١٩.

حس المسؤولية هو المعيار الذي يضع إنسانية الإنسان على المحك. وقد ساهم في تنمية الشعور بالمسؤولية تجاه الأمة عدم انتماء الشيخ الأصفي إلى السلطة، أي سلطة كانت، وان ما ورط غيره من المشايخ هي الأنظمة السلطوية التي يرتكنون إليها ويشعرون أنهم مأسورون إليها وجوديا ومعاشيا، وبالتالي فالتصريح يجب أن يكون منسجما مع رغبات تلك السلطة ومصالحها، فحين تكون مصالحها مع الاعتدال تأمر أبوابها بالاعتدال وحين تصبح مصالحها رهن التطرف والإرهاب تدعم الخطاب المتطرف والخطاب الإرهابي. هذه حقيقة تاريخية يجب أن نعيها ونستوعب عبرها. وقد تجاوزتها النفس الكبيرة للشيخ الأصفي.

وقد عبّر الشيخ الأصفي رحمه الله الحدود الثقافية التي تحبس المرء في صندوق الذات، وعدّ ذلك دليل ضعف وهروب. ومقابل الانغلاق على الذات يقدم الشيخ مفهوم "الانفتاح" المنتزع من الآيتين الكريميتين ١٧-١٨ من سورة الزمر، إذ يقول تعالى: "فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب".

وقد فسر الشيخ الاستماع بأنه "الانفتاح" وهو في مقابل الانغلاق على الذات، ورفض الرأي الآخر، ويصف الانفتاح بأنه "...حالة صحية في التحاور العلمي والثقافي والحضاري... والانفتاح إمارة القوة والثقة بالنفس. والانغلاق إمارة فقدان الثقة بالنفس، والانكفاء على الذات والهروب من مواجهة خصومه العلميين والثقافيين والحضاريين، وهو إمارة ضعف وعجز على كل حال"^٤.

أما المفهوم الآخر الذي ينتزعه الشيخ رحمه الله من الآية فهو "الانتقاء" الذي يقوم على التمييز بين الحق والباطل واختيار "انتقاء" الحق. والنقد يعني أن لا يأخذ الإنسان بكل ما يسمع فيكون (إمعة)، ولا يرفض الانفتاح على الآخر. وهؤلاء الذين يتمتعون بخاصتي الانفتاح والانتقاء (النقد) رفعهم الله منزلة ووصفهم بوصف لا يرقى إليه إلا القليل من عباد الله الصالحين، فوصفتهم الآية الكريمة بأنهم "مهتدون وأولوا الألباب". وهذا يعني أن معيار العقلانية لدى الشيخ رحمه الله هو النقد، والاختيار العقلاني، وقد

^٤ الأصفي، محمد مهدي، الحوار الموجه، مجمع أهل البيت، النجف الأشرف، ٢٠١٥، ص ١٦.

عبر عنه الشيخ رحمه الله من خلال مفهومي "الانفتاح" و "الانتقاء" المنتزعين من الآيتين المباركتين السابقتين.

وسواء كنا أما مشكلة تجاوز سجن الطائفة أو أمام تجاوز سجن الذات ومحاورة الآخر، أو كنا أمام إعادة بناء الوعي الإسلامي فإنه يشرط ذلك بتوفر النخبة التي يطلق عليها "الطليعة الإسلامية" التي تجند نفسها لهذه المهمة المعقدة، مسؤولة إعادة توحيد الأمة، و "تقف وجها لوجه أمام انحرافات التاريخ [التي مزقتها]، وأمام الركام الهائل من المفاهيم التي ترسبت في نفوس الناس على امتداد التاريخ الإسلامي، وتكونت بعيدا عن ثقافة الوحي"^٥.

ومسؤولة هذه النخبة هي إعادة البناء الاجتماعي طبقا لمتطلبات الوحي، وإذا كان عامة الناس يقفون من البيئة الاجتماعية موقف الانفعال، فإن النخبة الطليعية تقف موقف المتعقل الهادف إلى الهدم وإعادة البناء، والعملية الإصلاحية تبدأ بالهدم وتنتهي بالبناء^٦. وهي إذن نخبة طليعية ناقدة، ولها رؤية للمستقبل مكتسبة من ثقافة الوحي.

وكل مثقف مسلم مسؤول أمام الله أن يكون عضوا من أعضاء هؤلاء النخبة الطليعية، النخبة الحاملة للرؤية الإلهية والمنفتحة على التجربة البشرية، فيوظف علمه ورؤيته الفلسفية ذات الأصول الوحيانية في سبيل إعادة بناء المجتمع وفقا لشروط ومعايير الإسلام. وينطبق هذا على معالجة المشكلات الاجتماعية الجزئية، عبر الدراسات الميدانية، باستخدام مناهج علم الاجتماع وعلم النفس وغيرها من العلوم الاجتماعية والإنسانية وفقا لرؤية فلسفية تشكل الخلفية الثقافية للمجتمع، وإلا تكون الدراسة فاقدة لقدرتها على التأثير في الوعي الاجتماعي.

ولذلك فأمام النخبة الطليعية هذه مهام صعبة، منها أولا تصحيح الوعي الاجتماعي وتخليصه مما علق به من المفاهيم الخاطئة عبر التاريخ، وإعادة بنائه وفقا لمعايير الرؤية الفلسفية الواقعية، لأن الوعي الاجتماعي لا يمكن أن يشتغل بشكل صحيح وهادف من دون رؤية على الإطلاق، أو برؤية ضبابية مكتسبة من الخارج. وثانيا

^٥ الأصفى، الشيخ محمد مهدي، المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ محمد مهدي الأصفى، المجموعة الحركية، المجلد الثاني عشر، لا مكان طبع ولا تاريخ طبع، ص ١٨٠.
^٦ ينظر المصدر نفسه، ص ١٨٢.

معالجة المشكلات الاجتماعية معالجة علمية وفقا لتلك الرؤية لتكون أكثر تأثيرا في الوعي الاجتماعي، لأن الأثر العلمي والفلسفي الذي لا يكون له تأثير اجتماعي وموج يحرك البنى الاجتماعية لا يمكن أن يكون له أثر عملي مباشر على الحياة الاجتماعية ويبقى حبيس الذهنية الفردية.

رحم الله شيخنا الأصفي وأسكنه فسيح جنانه وألهمنا نهجه الفكري وروحه الكبيرة السمحة. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.